«الغرفة السوداء، درب مولاي الشريف» لحسن بن جلون:

هل انتهى فعلا عهد مخافر التعذيب السرية في المغرب؟!

عبد الله كرمون*

■ نظم في الأيام الأخيرة «مهرجان بانوراما السينما المغربية» بمدينة سان دوني بدعوة من جمعية Indigène Films و بالتعاون مع سينما l'Ecran بالحيوية المعهودة في مديرها بوريس سبير و كذا بمجهودات عناصر جمعوية و أطراف سياسية مغربية، و بدعم بلدية سان دوني التي ركزت في شخص عمدتها على التوأمة التي سجلت بين مدينته و مدينة «تزنيت» المغربية الواقعة جنوب أكادير.

لقد عرضت أفلام أخرى و أفلام قصيرة بالإضافة إلى بعض الفقرات الموسيقية ونقاشات متنوعة بحضور جمعيات حقوقية و إنسانية و معتقلين سابقين في سجون الأنظمة القمعية.

غير أنني سوف أتناول فقط فيلم «الغرفة السوداء» أو المظلمة، دون أن يعني ذلك اعتبارا ناتجا عن حكم قيمي يستثنيه من بين الأفلام الأخرى و يقصيها.

الفيلم مأخوذ من كتاب جواد مديديش «الغرفة السوداء» الصادر بالفرنسية فبراير 2001 وقد قدم له المعتقل السابق ابراهام السرفاتي والذي كان من مؤسسي المنظمة السرية المغربية «إلى الأمام» ذات التوجه الماركسي اللينيني آنذاك.

لم يكن الفيلم جديدا، إذ ظهر في موسم 2004 وعرض في القاعات السينمائية المغربية و كذا في بعض قاعات مدينة بولوني الإيطالية قبل أن تعرضه التلفزة في المغرب بعد ستة أشهر من ظهوره دون أن تحترم حتى الأجل القانوني في استغلال النتاج السينمائي تلفزيونيا! مع أن بعض التوجهات السياسية، مثلما أوضح ذلك حسن بن جلون، قد قدمت آنذاك في المغرب مشروع قانون لمنع الفيلم غير أن البرلمان لم يأخذه بعين الاعتبار!

أمر آخر أن السفير المغربي بباريس قد تدخل كي يمنع ظهور الفيلم باليونسكو بعد أن برمج ثمة قبل مدة، غير أن الفيلم قد عرض بعد ذلك! (سنفهم فيما بعد مغزى هذه الرقصات!).

القاعات السينمائية الباريسية التي تعرض أفلام الجوز لم ترد قط أن تعرضه بدعوى أنه من الأفلام التي لا تعني و لا تهم الجمهور الفرنسي، بغض النظر عن مدير «لكرون» الذي قبل عرضه في إطار المهرجان السابق الذكر!

و إن تناهت إلى مسامعي أن سينما «la CIQ» الباريسية ستعرضه هي أيضا لاحقا و لربما فقط في موعد محدد.

المخفر السري درب مولاي الشريف بمدينة الدار البيضاء إذن أم فيلم حسن بن جلون؟!

عندما نتتبع الفيلم بشكل جيد لنكاد نحس أنه قد أنجز تحت طلب، غير مباشر، و أن بن جلون نفسه يركض مع الذين أصيبوا بإسهال ما و نشروا مذكرات حول أيام القمع الكبرى، محددين كونها تنتمي إلى ماض، و كأنهم يتحدثون عن الحروب الصليبية الأولى!

يأخذ الفيلم، محاصرا بالنص الذي أخذ منه و إن كانت فقرات كثيرة أضيفت إليه بخصوص الإثارة وحب نجاة، نموذج تجربة جواد مديديش الذي سبق له أن انتمى إلى منظمة «إلى الأمام» الثورية دون أن يبدو في بدء الفيلم سوى على أنه شاب مفعم بالحياة و إلى جنب خلواته ثمة عشيقته التي يذوق معها كل حلاوة و يحلم، عكس كل مناضل حر في تلك الفترة، ليس بالثورة و تحرر الإنسان من الفقر و القمع و الظلم الاجتماعي و إنما بزيارة روما و البندقية و باريس على أعقاب امرأة جميلة!

يختار حسن بن جلون للحديث عن فترة قمع النظام المغربي لتحرك الحركة اليسارية الراديكالية بين بداية السبعينيات و الثمانينيات نموذج شخص تراجع عن مواقفه السياسية لأنه أخطأ الطريق في نظره و ألجم في ذاته حرية الإنسان! لتبدو بذلك تجربته داخل مراكز التعذيب و كأنها بدون معنى أو أكثر من ذلك عبثية.

أمر آخر يؤكد سلبية رؤية بن جلون سواء لأفكار المرحلة أو لتاريخها، ما يدل أكثر على كونه لُفَّ في كيس اللجنة التي سميت ب «المصالحة و الإنصاف» و التي خرجت من ردن ملك المغرب. و كأن الأمر يتعلق بجناية طفيفة لا تتطلب أكثر من مصالحة بسيطة و بعض دية ما إن اقتضى الأمر!

هنا نفهم ذلك التهافت على الفيلم في المغرب و كونه بهذا المعنى يخدم قضية ما يسميه «المخزن» و يتبعه في ذلك كثير من اليساريين و ضحايا التعذيب بعملية «طي الصفحة»، و لنعجب لهم كيف استساغوا الأمر و كأن ما حدث خلال سبعينيات القرن الماضي لم يكن سوى كوارث جاءت من شراسة شخص واحد اسمه الحسن الثاني(1929ـ1999). و نسوا بذلك أن ذلك يمكن أن يتكرر، بل و يتكرر على الدوام، بطرق أخرى و بوسائل أخرى في أماكن أو أخرى من العالم!

يحاول بن جلون أن يضع المشاهد رهن ضغطين أولهما بارد و الآخر حار، و ذلك إذ كان يلهو، بل لم يكن يلهو بأمور جدية مثلما أكد نفسه على ذلك، لذا فهو يتلاعب بالمشاهد و يمرره من منطقة مناخية إلى أخرى بدرجات حرارية قصوى في الأقصى كل مرة.

من ينظر جيدا إلى الفيلم يرى كيف يقدم زبانية مركز التعذيب و إن في بهلوانية تقمصهم لجلادين حقيقيين على أنهم من يجعل المشاهد، في سياق تراجيدي واضح، يضحك و ينتشي. كل ألفاظ الشتم التي تثير الضحك أكثر مما تسيء إلى عزة الشخص، لقطة كمال و هو يغتسل و انقطع في أفكاره ونسي انتهاء المدة الزمنية المحددة و «الحاج» الذي يباغته في عريه كي يذكره و يضيف ملحة دالة، بلكنة مراكشية، أنه لم يداهمه لأمر آخر،نفهم أنه متعلق بالجنس، و إنما لغلق صنبور الماء!

تبدو إذن الصيغ التي وظفت في الفيلم عادية جدا بل مسموح باستعمالها و تداولها اليوم و لم يكن الهدف إذن نابعا من رغبة فنان أن يتناول حقيقة تاريخية مؤلمة و بنيوية في كل نظام ديكتاتوري. لذا فحتى حفل مغادرة بعض المختطفين للمخفر السري قدم فيها الجلادون و القيّمون على ذلك المركز الدموي بعض شهادات «أخوة» و «أبوة» إزاء الضحايا، و إن شاء المخرج أن يكون الأمر مجرد استهزاء فإن ذلك لا يستوي قط، لما تم القول لهم بأنهم يحبونهم و سوف يفتقدونهم كثيرا و «إن ضربناكم» كما يقول المتكلم.

في ثنايا الفيلم أيضا بعض التصريحات المدسوسة هنا و هناك تكشف دوما عن سلبية المخرج و اعتباره مادة فيلمه و كأنها مجرد حكاية تبدأ ب : «كان يا ما كان في قديم الزمان ملك ...»، مثل أن يأتي على لسان أحد الجلادين بأن كل أولائك المعتقلين كانوا سذجا و أنهم بالفعل كانوا أكثر من ذلك حمقى إذ كيف سولت لهم أنفسهم أن يتحدوا مثل كمشة ضئيلة دولة كبرى و قوية!! أو أن يشير أحدهم مرة أخرى إلى كونهم ألعوبة في يد اليهودي و يقصد بذلك ابراهام السرفاتي لكونه يهوديا مغربيا.

أشياء أخرى مثل أن يركز على مسألة أن يدل أحد المعذبين على رفيق له مثلما فعل كمال لما جيء به إلى الحارة «درب الفقراء» كي يدل على عبد الرحيم و قد كان هو نفسه ضحية خيانة من نفس النوع من طرف أحمد. لا أمحص الآن هذه الأمور و غيرها مما يتعلق بمنظمة «إلى الأمام» و إنما استقريء كيف قدم المخرج كل هذه الأمور دون أن أشير حتى الآن إلى فشل الفيلم سينمائيا على كل الأصعدة.

رأينا كيف أن حسن بن جلون تصرف نوعا في كتاب جواد مديديش و أضاف حكاية الحب التي أريد بها أن تشد المشاهد و يتتبعها و كأنها أجمل من بشاعة ما يعنيه فقط ذكر المخفر السري درب مولاي الشريف! فلماذا لم يضف أشياء أخرى و لماذا لم يجعل تجارب آخرين تتفاعل في فيلمه و تقدم لنا بشكل واضح بعض ما جرى دون أن نطالبه بكتابة التاريخ لأنه فنان من المفترض أن تكون لديه طريقته الخاصة في سبك مجريات الوعي الإنساني. لماذا لم تحضر النساء بدرب مولاي الشريف أو بسجن غبيلة و قد وضع حد ثمة لحياة سعيدة المنبهي في الإضراب عن الطعام الشهير و الذي ذكر في الفيلم (علل بن جلون ذلك الغياب بأنه صورّ مشاهد لنساء لكنه لم يحتفظ بها نظرا لسبب تقني!) و إن كان بن جلون يفضل أن يتحدث عن تندر المضربين و نوستالجيا الطعام لديهم و لو قدم بعض هذيانات أحد المعتقلين المصدومين لكون كثرة منهم لم يكن لهم عهد و لا قدرة تحمل بما يعنيه الوقوع في قبضة الزبانية. يريد بن جلون أن يضحكنا إذن و يثير رغبة مصطفى أن يأكل خروفا مشويا بأكمله بعد الإضراب و يرد عليه آخر بقوله و لما لا جملا مشويا و يتقبل الآخر قائلا جملا مشويا محشوا بخروف مشوي! ألن نضحك إذن؟ أما أنا فقد ضحكت و لكني لم أبك مثلما بكى كثيرون!

يؤكد بن جلون نفسه كونه يستجيب في انجاز الفيلم لتوصيات معينة و هو يقول بعد عرض فيلمه في مهرجان سان دوني أن القاعة التي عرض فيها في الأول بالمغرب كانت مكتظة خلافا لكل التوقعات و قد جاء الجميع حسب قوله، ضحايا القمع الأسود و جلاديهم القدامى، الضحية تظل دائما ضحية و لن يستطيع أحد أن يسقط عن الجلاد وصمته. الشيء المدهش الذي نبس به بن جلون هو أنه بعد نهاية الفيلم لمح معتقلا سابقا و جلادا يلتف أحدهما في ذراعي الآخر و يبكيان جميعهما! يا للعار!! و يضيف أن فيلمه إذن قد حقق هدفه!

إذن هذا هو هدف الفيلم : «المصالحة»!!

كان المغرب آنذاك يعج بالمخافر، و ما يزال، بعد درب مولاي الشريف المشؤوم (الذي كان يديره المسمى يوسفي قدور و الذي ترقى الآن بعد كل ما ارتكب ليصير مستشارا للإدارة العامة للأمن الوطني. فمع من سيتصالح الضحايا إذن؟ و كيف؟) و بفيلات الخطف و التعذيب مثل دار المقري أو (PF2و دار أو جنان بريشا و دار الريسوني و غيرها من المراكز و المزارع خاصة في الغرب. مثلما ما تزال قطع أثيرة من أرضنا توارى في صمت منقطع كثيرا من المقابر الجماعية، و رفات كل الذين خرجوا ذات يوم من منازلهم من أجل وطن حر و عادل. لم يعودوا قط و لا تحرر الوطن أبدا!!

لم يكن هدف حسن بن جلون ذكر كل هذا و لم يكن بمقدوره حتى أن يصور في السجن إذ يرى أن الزنازين جد ضيقة و يستحيل معها كل اشتغال سليم لأدوات التصوير لذلك حاول سردابا ثم تخلى عن الفكرة و صور أمكنة درب مولاي الشريف في حمام موريسكي مهجور كان في نظره ما يقترب في الواقع من حقيقة ذلك المخفر السري.

كان فيلم بن جلون ركيكا على مستوى اللغة و الحوار و لم يستطع، مثل غيره من الأفلام المغربية، أن يمنح للمشاهد عملا ذا عمق فني و فلسفي لأنه مطالب بذلك، فالسينما ليست مجرد حوار و تصوير كيفما اتفق و إنما هي عمل فني لا يحضر فيه عنصر من العناصر كيفما كانت طبيعته إلا و كان يحضر من أجل دلالة معينة. و لست ألقن الأمر للمخرج و لكني كمشاهد ألح غياب أي بعد فني عال في تناول قضية بطبيعة الحال كبيرة و ما تزال تثقل الرأي العام الحقوقي و الإنساني. نلحظ من داخل الزنزانة أن كمال يحمل دوما كتابا و بلغة أجنبية (الفرنسية) و لكن المخرج لم يلتفت قط إلى الأمر أبدا و كأنه ديكور جامد لا معنى له أبدا إذ ينسخ نص جواد حرفيا حيث لا يليق ذلك. فمتى كان الفيلم يناقش نظريا أو حتى بشكل سجالي : لماذا الاختطاف؟ و ما هي الماركسية؟ و ما معنى التعذيب؟ و ما هي الحرية؟ و ما هي الديكتاتورية؟ أو غير ذلك. ثمة واجهة إحدى المحلات العمومية تحمل «سنة سعيدة 75»، كوع من الضبط الزمني لكرنولوجيا ما، و لم ينس قط أن يحشر موكبا لما يسمى بالمسيرة الخضراء لربما دون أن يدرك لماذا؟ صحيح أن ثمة كان آنذاك مسلسل الإجماع الوطني حول عدو خارجي بخصوص الصحراء الغربية و كانت بعض تسريحات جزئية لامتصاص السخط العام، و لإبرام صفقات مع أحزاب ما، كما يحدث دوما.

إن الحق في الحياة مقدس، فأن نعذب جسديا و نفسانيا أشخاص يحملون أفكارا لهو الضعف الكبير الذي يخفيه الديكتاتور بالقمع. فلماذا مر بن جلون كذلك حول قضية التعذيب، إذ أشار إليها سريعا و لم يظهرها للمشاهد، سينمائيا بطبيعة الحال، هل لأن ما مورس بدرب مولاي الشريف، مادام هو المثال الذي منح في الفيلم، هو مجرد بعض ضرب و ضرب رأس بالحائط و إطفاء عقب سيجارة على جسد المعذّب و كفى؟

تلك ثغرة أخرى في الفيلم كان لزاما على المخرج أن يقدمها كي تكتمل الصورة و تتضح أبعادها، و إن كان يطيل في باب الدموع و النشيج سواء من طرف الأمهات و غيرهن و كأنه يستجدي دموع المشاهد و كأنها هي أيضا هدف الفيلم، و لما لا فهي التي ستربط، في منطق بن جلون، قلوب الذين كانوا من أهان كرامة الإنسان ومرغوا جسده في أفظع و أبشع صور التعذيب التي شهدها التاريخ كي تتحقق المصالحة مرة أخرى!! «بالمفهوم الإسلامي»!! كما كتب، في جريدة القدس العربي مؤخرا، أحد المغفلين أو المتواطئين مع النظام.

يعيد الفيلم عقد محاكمة 1975 الشهيرة في تاريخ المغرب و بنوع من الحذر و في أجواء بعيدة كل البعد عن الواقعي إن تجاوزنا قدرة السينما على إعطاء أبعاد أخرى نرغبها لأحداث أردنا إعادة الإمساك بالمتشابك فيها و المخفي و غير المصرح به. يردد أولائك المعتقلون داخل المحكمة ذلك النشيد المعروف بعد صدور أحكام قاسية في حقهم و لم ينس بن جلون أن يحذف الفقرة التي تتضمن مركبا هو «طغاة النظام».

كان من الممكن أن يكون الفيلم رائعا لولا أنه أريد له فقط أن يرد قضية كبرى و خطيرة في تاريخ المغرب و في بنية نظامه السياسي، المخزنة (ما يزال تسلط بعض الشيوخ جاريا إلى يومنا في بعض بوادينا!)، الاستنطاق، الاختطاف، كم الأفواه، التعذيب ... و كأنها قضية بسيطة و مرتبطة بفترة محددة، الفيلم يريد أن يعومها، أن يسلخ عنها جلدها الحقيقي و تصير شيئا مشوها، ليصل إلى «المصالحة»، أية مهزلة أن نتحدث عن جلادين و كأنا نتحدث عن أشباح، في الوقت الذي ينعمون فيه برفاه بلا نظير. و إن كنت أرى أن إعلان أسمائهم و محاكمتهم لا يكفي دون أن يصاحبه فهم و وعي كامل بأن أولائك ليسوا سوى منفذين و إن كانوا ذوي قرار، لمنطق مرتبط بنظام الحكم و بإطلاقيته و مركزية سلطه، و أعتقد أن وضع مرهم للجرح دون قطع جذر الداء لا يفيد في شيء و طريق الديمقراطية طويل و طويل!

لقطة من فيلم «الغرفة السوداء»

حسن بن جلون

ليس رثاء

كمال سبتي: شاعر بدرجة عاشق كبير

فيصل عبد الحسن*

■ خبر نعي الشاعر كمال سبتي بقي ملتصقا على شاشة الكومبيوتر ولم أستطع الاستمرار في البحث كما اعتدت ذلك في هذه الساعة من الليل وشعرت بأصابعي ترتجف وأنا أتملى الخبر الحزين، فهذا الشاعر السبعيني الذي لا أستطيع أن أتخيله من دون بذلته العسكرية التي كان يواصل بها عمله كمصحح في جريدة القادسية أثناء الحرب العراقية الإيرانية 1980 ـ 1988 إلى ساعة متأخرة من الليل ثم بعد ذلك يستدين من هذا أو ذاك ثمن أجرة التاكسي الذي سيقله إلى أحد الأقسام الداخلية لجامعة بغداد أو أكاديمية الفنون ليقضي ليلته بدلا من أحد الطلاب الأصدقاء الذين سافروا ليروا أهلهم، كانت حياة رهيبة في ذلك الوقت بالنسبة لشاعر خصوصا إذا عرفنا أن ـ أهل كمال سبتي ـ يعيشون في الناصرية جنوبي العراق وعلى بعد أكثر من 600 كيلومتر عن العاصمة بغداد وعموما الجيل السبعيني من شعراء وقصاصين ونقاد عراقيين كلهم عانوا ما عانوه بهذه الدرجة أو تلك من المعاناة خلال الحرب الطويلة التي كان وقودها الجهل والتعصب القومي والمصالح العليا لتجار السلاح، وأجندة الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي والمعسكر الغربي ومع كل ذلك كمية كبيرة من سوء حظ الشعبين العراقي والإيراني، فقد طالت الحرب وصارت الأجيال الشابة وقودا لأتونها المستعر وكان ذنب جيلنا الوحيد أنه الجيل الشاب الذي صادفت فتوته كل هذا الكم من خراب الحرب ولم يكن هناك بد من المشاركة بهذا الشكل أو ذاك في جهد البلاد الحربي فالحدود مرصودة جيدا والأهل رهائن عند الدولة.

شاعر الحداثة

لم ألتق يوما بالصديق كمال سبتي في تلك الأيام وقد كنت وقتها جنديا (مهندساً مجنداً) ضمن تشكيلات الهندسة العسكرية في قاطع الفيلق الرابع في منطقة الفكة الحدودية بين العراق وإيران وأثناء إجازاتي الدورية كنت ألتقيه وكلما التقيته مع الأصدقاء كالشاعر أديب كمال الدين، محمد مزيد (قاص) ضرغام هاشم (صحافي) (أعدم الأخير فيما بعد بسبب مقالة طالب فيها بالديمقراطية والمزيد من الحريات للشعب العراقي ويبدو أن أوان الدمقرطة التي خربت بيوت العراقيين فيما بعد كان مبكرا جدا بالنسبة للقيادة العراقية في ذلك الوقت)، كنت كلما جئت وجدته يخوض في حوار واحد موضوعه الحداثة الشعرية.. حتى أطلق عليه الأصدقاء من الشعراء تسمية (الحداثوي) نكاية بما يدعوهم إليه، وكانت هناك صولات وجولات من المزاح الثقافي بين شاعرين عملا مصححين في جريدة القادسية هما الشاعر العراقي المعروف أديب كمال الدين (يقيم في استراليا حاليا) الذي كان يكتب قصيدة التفعيلة مع تطوير واضح في البحور الشعرية وبحث دائم في فنية وفلسفة الحرف العربي كما جاءت في القرآن الكريم، كمثل.. نون والقلم وما يسطرون، أو الحروف الواردة في آية قرآنية، تصير كمفردة غريبة في قصيدة تفعيلة كما جاء في مقدمة إحدى السور القرآنية وأقصد بها حروف كهيعص كمجموعة حروف دالة على عمق لغوي وصوفي خارق كثير الأسرار والمقاصد، والذي كان يلتزم دائما جانب قصيدة التفعيلة بينما كان كمال سبتي من العاشقين لقصيدة النثر متابعا بشغف كل ما ينشر في مجلة الناقد أو ما يتفوه به أنسي الحاج وصلاح ستيتية أو أدونيس حول طاقة النثر الشعرية وعن الموسيقى الشعرية في القصيدة الجديدة، متعللا أن الأوزان الشعرية جاءت في مرحلة متأخرة لتمييز الشعر عن نثر القرآن الكريم أي أن الشعر العربي سبق وضع الأوزان الشعرية كقوالب جاهزة لاحتواء الشعر منشدا بين وقت وآخر نثرا للتوحيدي أو قارئا في نص الطواسين للحلاج، أو قصائد من الماغوط. كان دائم المزاح كثير التعليقات شديد الانتقاد لما يصادفه أثناء عمله كمصحح في جريدة القادسية التي يقضي خدمته العسكرية الإجبارية فيها. كان شديد القسوة في القول وهو ينعت قصائد بعض الشعراء الذين لا يتفقون معه في المنهج الشعري أو الفكري وأتذكر في مرة من المرات أصر على دفع قصيدة للشاعر لؤي حقي من دون أن يصحح أخطاءها الإملائية وما أدراك وقتذاك ما لؤي حقي في ذلك الوقت فقد كان شاعر الرئيس صدام حسين المفضل بل إن حقي كان يعتبر نفسه بمثابة الابن الثالث لصدام بعد (عدي وقصي) وكانت له الحظوة عند رئيس الجمهورية في أن يذهب إليه وقتما يشاء وأينما يكون الرئيس، وكان مجرد ذكر اسمه كضابط مخابرات يرعب الكثيرين.. المهم نزلت قصيدة لؤي بأخطائها وبخط لؤي حقي الذي كان يشبه خربشات مخالب قط على الطين.

وكان وقتها شاعر آخر صار مسؤول الصفحة الثقافية بحكم الرتبة العسكرية هو الشاعر يونس ناصر عبود، فانقلبت الدنيا في اليوم التالي على الشاعرين حال صدور عدد الجريدة.. ولشدة وقع الحدث نصح الكثيرون الشاعر كمال سبتي بالهروب من الخدمة العسكرية وإلا فإن الله وحده يعلم ما سيؤول إليه حاله، وقدم الشاعر كمال سبتي إلى محاكمة عسكرية في دائرة التوجيه السياسي في مقر الجريدة ودافع عنه كل من كان يعرفه من الشعراء والكتاب في الجريدة وكانت النتيجة أنه سجن لمدة شهر واحد في مطبعة الجريدة في غرفة صغيرة كانت تستخدم كمخزن للأحبار كان سعيدا بهذا السجن فقد قرأ خلال فترة السجن رواية الزمن المفقود لمارسيل بروست.

انصرفوا لتغيير حياتكم

كان كمال سبتي يرحمه الله إضافة إلى موهبته الشعرية التي لا يختلف على أصالتها اثنان، مزيجا من المهرج والداعية السياسي الفوضوي، والموهوب في التنظير الشعري والكاسب الأكبر للأعداء بفعل صراحته الجارحة في بعض الأحيان، كان إبنا حقيقيا للفقراء وقد كتب عنهم أجمل وأعذب قصائده خصوصا في ديوانه المبكر «وردة البحر» الصادر عام 1980، و«حكيم بلا مدن» عام 1986 حيث تتبدى عدميته وفوضويته السياسية واضحة ولكنها بالطبع فوضوية شجاعة في زمن الحزب الواحد والنظام الشمولي الذي كان سائدا وخلال حرب رهيبة ألغت كل الحقوق العادية للمواطنين ومنها حق التفكير بصوت عال على طريقة كمال سبتي.. وفي قصائد ديوانه «متحف لبقايا العائلة» عام 1989 نضج الشاعر وصار همه البحث في ماهية الحياة والموت وصار بحثه التنظيري في القصيدة أكثر وضوحا وتأثيرا في قصيدته الشعرية مما خلق فجوة بينه وبين القارىء فصارت قصائده غير محبوبة من قبل جمهور عريض خرج من الموت قتلا في الحرب بأعجوبة والتي انتهت قبل عام واحد من نشر الديوان.

وأتذكر في إحدى الأمسيات الشعرية أثناء فترة الحرب وفي اتحاد الأدباء في ساحة الأندلس في بغداد كان الشاعر ثملا يقرأ لمن حضروا الأمسية قصيدة تعني بالتنظير لقصيدة النثر ولا علاقة لها بموضوع شعري معين فتركه المستمعون وانصرفوا لشؤونهم تاركين الشاعر يتخبط في ذكر أسماء بعض نقاد الشعر الأجانب مركزا على إليوت كمنظر لقصيدة عالمية جديدة. في النهاية شعر انه وحده على المنصة فصرخ: انصرفوا لتغيير حياتكم هذا ما أردت أن أوصله لكم..

العاشق الكبير

تألق كمال سبتي الشاعر والإنسان حين عشق صبية شاعرة قادمة من إسبانيا تمت دعوتها إلى مهرجان المربد ولا أحد يعرف كيف تفاهم معها وبأي لغة فهو لا يتحدث أي لغة غير العربية وهي لا تتحدث بغير الإسبانية وكانا كطائرين جميلين يحلقان بين الطاولات والتجمعات الأدبية التي كانت تجتمع خارج صالات الشعر وتعقد مؤتمراتها الليلية وفيها يصرح الحاضرون علانية بإدانة نوعية الشعر الحكومي والتعبوي الذي كان يقرأ على منصة الشعر في مهرجان المربد العتيد. كان حين يحدثنا عنها تتألق وجنتاه بالفرح ويبح صوته وتختنق الآهات في صدره، ويتعرق جبينه، نعم لقد أخذت تلك القشتالية قلب الشاعر معها وحين غادرت إلى بلدها بعد انفضاض المهرجان صار هم الشاعر كيف يلتحق بحبيبته في إسبانيا وفي وقت الحرب كان السفر ممنوعا والحب من أجنبيات ممنوعا أيضا على المدنيين العراقيين فكيف يمكنه السفر ومحية من يشاء وهو الجندي المغضوب عليه في حرب لا أول لها ولا آخر؟

كانت رسائل القشتالية إليه تمنيه بحياة شعرية كاملة في إسبانيا، وترسم له لوحة هائلة عن بلد بيكاسو وجمال مدنها، والأمن والسلام الذي سيجده في كل بقعة من بقاع أرضها، ووقتها كان هناك شاعر كبير حيدت الدولة صوته الشعري بإرساله كملحق ثقافي في إسبانيا طوال فترة الحرب العراقية الإيرانية هو الشاعر عبد الوهاب البياتي، والمستعربة الاسبانية غارسيا لوث التي كانت تعيش في العراق وكانت لها علاقات واسعة بالأدباء العراقيين الشباب في ذلك الوقت ولا تحدث أمسية أدبية في اتحاد الأدباء إلا وتكون من أبرز الحاضرين فيها.

الإعدام للشاعر العاشق

حين فر كمال سبتي من الخدمة العسكرية بعد إيفاده ضمن وفد اتحاد الأدباء إلى خارج العراق اعتقد الجميع أن الشاعر خرج لأسباب سياسية.. وكنت الوحيد ربما الذي قلت لمن تساءل عن سبب تركه للبلاد.. لا تعجبوا أن العاشق ذهب ليلتحق بحبيبته القشتالية. كمال سبتي لا يطيق السياسة ولا السياسيين وهو شاعر بدرجة عاشق كبير وبسبب هذا العشق الكبير حكمت الحكومة العراقية بالإعدام غيابيا عليه لهروبه من الجيش إلى خارج البلاد أثناء فترة الحرب، ولم يكن ذلك مزاحا. كانت الحكومة تنفذ بكل قسوة كل ما تنص عليه قوانين الحرب فقد أعدموا صديقنا القاص حاكم محمد حسين بلا رأفة لأنه تلكأ عدة أيام في الذهاب إلى وحدته العسكرية بالرغم من قصصه الجميلة ومجموعته القصصية (مساحة بيضاء) التي حضورا ملفتا في الوسط الأدبي في تلك الفترة وموهبته الفريدة في خلق الصداقات مع الآخرين وجاءت الأخبار فيما بعد عن كمال سبتي أنه وصل إلى إسبانيا وبذلك فقد تحقق حلمه بالاجتماع بحبيبته القشتالية الجميلة.

وبذلك تأكد حدسي بأن صاحبي شاعر بدرجة عاشق كبير، وبسبب هذا العشق الكبير كانت العقوبة أقصى ما في سجل عقوبات القانون البغدادي من عقوبات الإعدام..

صعد إلى السماء

احترمت الشاعر كمال سبتي لموقفه النبيل من بلاده وأهله أثناء اتحاد القرار بالغزو الأمريكي للعراق تحت شعار التحرير فهو من القلة المحكومة بالإعدام من بيننا من قبل نظام صدام حسين.. ولكنها رفضت الحرب بشكل عام بالرغم من مغريات كثيرة قدمت لكتاب العراق الشرفاء ليركبوا مع الراكبين، وقبل وفاته بشهور قليلة قاد حملة صحافية لإطلاق سراح صديقنا القاص المبدع محسن الخفاجي من سجن بوكا الصحراوي في أم قصر الذي تشرف عليه القوات الأمريكية وقد شاركت في جهده الإعلامي لإطلاق سراح صديقنا، فأرسل لي رسالة رقيقة يشكرني فيها نيابة عن الخفاجي وعن نفسه والمفرح أن جهود الشاعر كمال سبتي وجهود أصدقائه لم تذهب سدى إذ أطلق سراح القاص الخفاجي بعد وفاة الشاعر كمال سبتي بأيام، إذ أطلق سراح الشاعر بعد ثلاث سنوات من السجن وهو بلا تهمة محددة في يوم 13 نيسان (ابريل) الماضي فطوبى لروح شاعرنا الذي كنا دائما نقول عنه أنه حين يموت سيصعد مع ملابسه البيضاء التي كان يحب أن يرتديها في أيام اجازاته الدورية من الجيش منتشيا في مقهى حسن عجمي، وسط بغداد، وبالضبط مثل تلك الصبية دوريتينيوس الجميلة في رواية ماركيز «مائة عام من العزلة» التي كان الشاعر معجبا بها حد التماهي، التي تختفي فجأة فيروي الرواة عن صعودها العجائبي للسماء بثوبها الأبيض الموشى بالدانتيل..

---

* كاتب وصحافي من العراق يقيم في المغرب

«حمراء» معرض للفنان التشكيلي عبد الناصر عامر بقاعة المركز الثقافي الفرنسي بغزة

غزة ـ أشرف سحويل.

افتتح في قاعة المركز الثقافي الفرنسي في محافظة غزة مؤخراً معرض للفنان التشكيلي عبد الناصر عامر بعنوان «حمراء »، بحضور المستشار الثقافي الفرنسي بالقدس روبيرت هورنو ومدير المركز الثقافي بغزة فاتيون بيلانو وعدد كبير من المثقفين والفنانين والمهتمين.ولفت مدير المركز السيد هورنو في كلمة له إلى أن هذا المعرض يأتي استمراراً لمعارض سابقه أقيمت في المركز وعرضت فيه أعمال للفنان عامر وكذلك لفنانين تشكيليين فلسطينيين شبان.

وضم المعرض أكثر من عشرين لوحة فنية استخدم بها خامة ألوان الأكريلك برزت فيها الألوان الصريحة المتباينة وجاءت أعمال الفنان عامر بتجريدية عالية خلت من التفاصيل معتمدة على التكوينات اللونية الأحمر والأبيض والأسود. بالإضافة إلى دراسات حول اللون، المساحة، الفراغ، الخطوط ودراسات عن الموديل بطريقة تجريدية بألوان ذات تكنيك الأسود.

الناقد التشكيلي د. شفيق رضوان قال ان أعمال الفنان عامر تمثل تجربة في سلسلة تجاربه الفنية المتتالية في ميدان التصوير والغرافيك. والتي يسعى فيها إلى سبر إمكانيات الخامات التشكيلية والتعبيرية يتوضح فيها جرأته في بناء تلقائي لتكويناته ولكن المحسوبة بحساسية ذاتية عالية والتي يغنيها بتنوع الخامات المستخدمة.

وأضاف أن الفنان عامر يولي في مجموعته الحالية اهتماماً بالاستفادة من إمكانياته الشفافية والإعتام في اجتماع أكثر من خامة لخلق تنغيمات لونية وظلية وملمسية بهدف إغناء المساحات الكبيرة في تكويناته مستفيدا في ذلك من الثقافة الفنية في تفهمه لخصوصيات فن الأيقونات الشرقية.

تعكس المجموعة الحالية المعروضة والمنفذة على الورق بحجم متوسط ويرى د. رضوان طموح الفنان عامر في خلق تكوينات حديثة لا تبتعد عن مفهوم اتجاهات الفن الحديث التجريدية في القرن العشرين، ورغم المظهر التجريدي العام للرؤية البصرية بإمكان المشاهد أن يتبين في هذه الأعمال رمزا وأشكالاً تحمل أفكارا أو تعبيرات ما قد تعكس واقع الفنان الاجتماعي أو مشاعره الذاتية من خلال لون صريح قوي ومن ناحية أخرى تؤكد صراحة تكوينات مقطعية في أغلب النتاجات الفنية المعروضة. يبقى أن نقول بأن تفهم القيمة الحقيقية للمجموعة القائمة لا بد أن يترك رغبة عند المشاهد للوقوف على تجارب اللوحات السابقة وهذا أمر ذو مغزى ويبقى المهم بالنسبة للفنان أن يكون باحثا ومجربا في ميدان عمله لخصوصيات فن الأيقونات الشرقية.

بلال بدوان أحد الزائرين للمعرض قدم شكرا خاصا للمركز الثقافي الفرنسي الذي يتحفنا بهذه المعارض التي تتناول تجارب العديد من الشبان وأضاف: لاحظت تجربة جديدة بالعمل التجريدي صحيح أن معظم الناس عندما ينظرون لهذه اللوحات تقريبا لا يفهمون معناها، لكن بصراحة الفنان قدم ما نستشف منه رسالته الفنية وكل مشاهد للوحة يفسرها وأرى أن اللوحات تمتلك النمط السوداوي وتتعامل مع النفس البشرية.

محمود الناطور مشرف الأنشطة اللامنهجية بجامعة الأقصى قال إن المعرض يدل على وجود طفرة فنية بين شبابنا استطاعوا أن يستفيدوا من الخبرات الغربية بمنحاها الصحيح وعبروا عن وجهة نظرهم من خلال لوحاتهم فنجد لوحات الفنان عامر خرج بها عن المألوف لأنه اشتغل على اللون والخامة أكثر من الشكل ورصد لنا فكرة جديدة. وأوضح السيد «بيلان» أن المركز يستعيد نشاطاته ويكمل مسيرته بعرض الأفلام السينمائية إضافه إلى إنشاء فرقة كورال للمركز للغناء باللغة الفرنسية وغيرها من النشاطات احتفالاً بعيد الفرانكفونية.

ومن جانبه قال المستشار «هورن» إنه سعيد بوجوده في غزة لافتتاح معرض عبد الناصر عامر موضحاً أن هناك اهتماماً فرنسياً بالأراضي الفلسطينية من خلال تقديم منح فنية لفنانين فلسطينيين كل عام للإقامة في مدينة الفنون العالمية في استوديو خاص واقتناص الفرصة هناك لكسر الحصار والالتقاء بآخرين والاطلاع على تجربتهم التشكيلية وتطورها.

و ذكر أنه استفاد من المنح في قطاع غزة كل من تيسير البطنيجي، هاني زعرب، عبد الناصر عامر، محمد جحا.

وعن الفنان عامر قال ان عمله السابق يتميز بألوانه المعتمة كتعبير عن وضع غزة إلا أن أعماله الحديثة برزت فيها الألوان.

جدير بالذكر أن الفنان عبد الناصر عامر من مواليد عام 1970 يقيم في خان يونس ويعمل في جمعية الهلال الأحمر الإماراتي بغزة. أقام في مدينة الفنون الدولية باريس واختير من قبل مركز خليل السكاكيني للمشاركة في الأكاديمية الصيفية للفنانين العرب الشباب في دارة الفنون بعمان تحت إشراف البروفيسور الفنان مروان قصاب باشي.أقام خمس معارض فردية إضافة إلى مشاركته بالعديد من المعارض الجماعية المحلية والعربية والدولية.

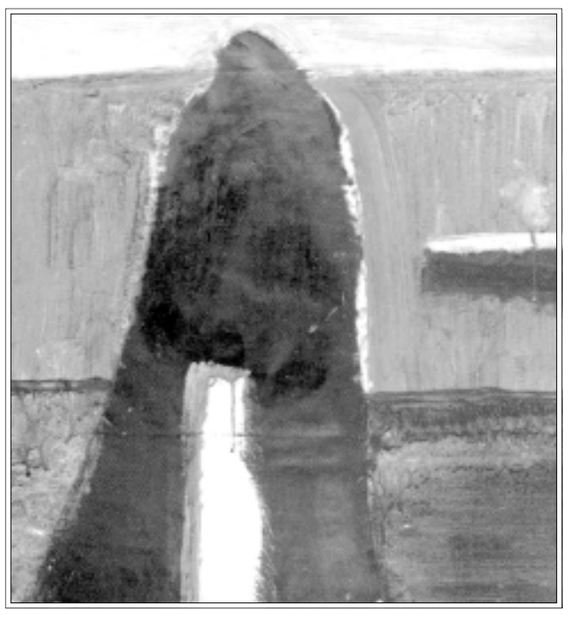

AL-QUD